

الأصول الفكرية لنظرية النظم عند "عبد القاهر الجرجاني" دراسة نظرية
The intellectual origins of systems theory according to "Abdul Qaher
Al-Jurjani", a theoretical study

جرماني الزهرة

¹ جامعة دكتور مولاي الطاهر - سعيدة (الجزائر)

تاريخ النشر: 2021/09/30	تاريخ القبول: 2021/09/23	تاريخ الإرسال: 2021/06/29
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تعد هذه الدراسة محاولة منا ترمي إلى الوقوف عند إشكالية الأصول الفكرية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وقد ارتأينا أن نشير إلى "مرجعيات نظرية النظم"، والتي تركز على النشأة والدوافع الحقيقية لنظرية النظم عند الجرجاني، وبالأخص المدرسة الأشعرية التي ساهمت آرائها العقائدية والفكرية في بروز نظرية النظم، إلى جانب قضايا الكلام النفسي وإعجاز القرآن التي تعتبران بداية تبلور فكر الجرجاني والتي منهما استقى نظريته. الكلمات المفتاح: الجرجاني؛ نظرية النظم، الأشعرية، الإعجاز القرآني.

Abstract :

This study is an attempt by us to stand at the problem of the intellectual origins of systems theory according to Abdul Qaher Al-Jurjani. The emergence of systems theory, along with the issues of psychological speech and the miracle of the Qur'an, which are considered the beginning of the crystallization of Al-Jurjani's thought, from which he derived his theory.

Keywords: jerjani; System theory, Ash'ari, Quranic miracles

1. مقدمة:

تعد اللغة العربية من بين أغنى لغات العالم وأشرفها، وقد كانت السبابة لكثير من الدراسات في ما يخص قواعدها ومبانيها وقوانينها، وتعتبر نظرية النظم " لعبد القاهر الجرجاني " من أهم الدراسات اللغوية في التراث العربي، والتي استطاعت إرساء علم النحو وقواعده، وهذه النظرية التي لها قيمة علمية كبيرة ومكانة لغوية لا يضاهيها شيء، ومن خلال كتابه المشهور " دلائل الإعجاز " الذي جسد فيه نظريته و التي لقيت إعجابا من طرف الدارسين لعلم النحو ومحبي اللغة العربية، وقد استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يستفيد من سبقه في فكرة النظم كالجاحظ والآمدني وغيرهم، فطورها وتميز بها ونسبت له، وانطلاقا من هذه الرؤية نحدد الإشكالية المراد دراستها على النحو الآتي: ما هي الأصول والمرجعيات الفكرية التي استسقى منها عبد القاهر الجرجاني نظريته؟.

2. عبد القاهر الجرجاني سيرته ومؤلفاته:

1.2 سيرته: هو "عبد القاهر الجرجاني بن عبد الرحمان أبو بكر النحوي، فارسي الأصل جرجاني الدار، عالم بالنحو والبلاغة، أخذ النحو بجرجان عن الشيخ أبي الحسن محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الوارث الفارسي، نزيل جرجان، ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، وأكثر عنه، وقرأ ونظر في تصانيف النحاة والأدباء وتصدر بجرجان، وحُثت إليه الرحال. وصنف التصانيف الجليلة، وكان رحمه الله ضيق العطف لا يستوفي الكلام على ما يذكره مع قدرته على ذلك"⁽¹⁾.

وقد عُرف عنه "سعة العلم وغزارة، واشتهر بعلم النحو، حتى كان يُسمى "عبد القاهر الجرجاني النحوي، وله مصنفات كثيرة في النحو، ولكن جهوده في علم البلاغة فاقت جهوده في علم النحو، بما أحدث فيها من آراء ووطد من نظريات، ومن ثم معرفة مدى علمه الغزير الذي جعل العلماء والأدباء بعده يلقبونه إمام البلاغيين، لما بسطه في كتابه " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة "، فهو عالم فاضل من علماء جرجان، بلغت شهرته الآفاق، وأضاءت مؤلفاته المكتبات، لأنه أنبه من صنف في علم البيان والبديع، وقد أفاد من المؤلفات التي سبقته، وأضاف إليها ما كون ثروة بلاغية نفخر بها تنباهي، مع ما عُرف عن هذا الشيخ الجليل أنه لم يسافر إلى بلد ولم ينتقل طلبا للعلم، ولم تذكر كتب التراجم أنه اتصل بعلماء عصره"⁽²⁾، وعليه فإن عبد القاهر الجرجاني قد كان " عالما دينيا وقف تفكيره ووهب حياته للدفاع عن الإسلام، وكان خير مدافع ومما يدلنا على عاطفته الدينية مضافا إلى ما ذكره بعض مترجميه ما نلمسه في الدلائل من أقوال تدل على سمو عواطفه الدينية، مما جعل ذكر الله سبحانه وتعالى دائما واضحا في كتاباته حيث يستهل تقريبا كل فقرات مصنفة الدلائل بذكر العي القدير، جاعلا

الاستعانة بالله في أكثر فصول الكتاب، من ذلك قوله: " ونسأل الله الهداية"، " والله الموفق للصواب..."⁽³⁾...
 ...أستعين بالله"، وهكذا نلاحظ على الشيخ عبد القاهر الجرجاني الدقة في اختيار خواتم الفقرات والفصول
 اختياراً يناسب المعنى الأساسي للفكرة، وكما هو ملاحظ أن عبد القاهر الجرجاني متأثراً بالقرآن الكريم في تعبيراته،
 فيها هو ذا بعد أن توصل إلى أن الألفاظ تبع للمعاني في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق حسب ترتب معانيها
 في النفس"⁽³⁾.

وفاته: لقد توفي " شيخ البلاغة وإمامها الفذ في سنة احدى وسبعين وأربعمائة للهجرة، وقيل سنة أربع وسبعين
 أربعمائة للهجرة"⁽⁴⁾.

2.2. أساتذة الشيخ عبد القاهر الجرجاني:

إن شخصية العالم القوية والفذة هي من جعلته يتميز عن غيره وساهمت في تكوينه فقد عرف عنه " أنه لم
 يخرج من بلد، لتلقى العلم، ولم يرو أنه اتصل بسultan أو أمير، ولم يختلف إلى أحد من الفقهاء والشيخ المشهورين،
 ولم يعرف عن أسرته أنها قدمت له مساعدة في هذا الشأن أو جلبت له المعلمين، بل الذي عرف عنه انكبابه
 على الدرس. وتحصيل العلوم، وتلقف كل ما وصلت إليه يد بالتحصيل والدرس"⁽⁵⁾، كما ذكر ابن الأنباري حين
 قال: "هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي، كان من أكابر النحويين، أخذ عن أبي الحسين
 محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الوارث، وكان يحكي عنه كثيراً، لأنه لم يلق شيخاً مشهوراً في علم العربية، لأنه
 لم يخرج عن جرجان في طلب العلم، وإنما طرأ عليه أبو الحسن فقرأ عليه"، والملاحظ أن المؤرخين لحياة (الشيخ
 عبد القاهر الجرجاني) اتفقوا جميعاً على أنه لم يتصل بكثير من العلماء، ولكن بعضهم اختلفوا في أستاذه، بينما
 ذكر ياقوت الحموي (أن عبد القاهر قرأ على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني واغترف من علمه، وكان إذا
 ذكره في كتبه تبخيش قال يخ بخ - به وشمخ بأنفه بالانتماء إليه، غير أن الحموي نفسه قال في ترجمة (محمد بن
 الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي أن من تلاميذه عبد القاهر، وليس له أستاذ سواه"⁽⁶⁾، والقول الأخير أقرب
 إلى الصحة، " لأن القاضي الجرجاني مات في بعض الروايات في سلخ صغر سنه ست وستين وثلاثمائة، وفي
 بعضها أنه مات سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، ولا يعقل أن يتصل به عبد القاهر حتى أواخر أيامه وقد شك معظم
 الباحثين في هذه التلمذة"⁽⁷⁾.

ومع هذا نجد أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني قد انكب على كتب العلم، إذ كانت جرجان تغص بالوافدين
 من العلماء والفقهاء، مما أتاح له في يده فرصة كبيرة للقراءة والإطلاع على الكثير من المؤلفات بعقل واع، ونقل
 عن كثير من العلماء الأفاضل. أمثال: سيبويه، الجاحظ، المبرد، ابن جني، العسكري، القاضي الجرجاني وغيرهم،

وكان يشير مرة إلى مرة من أخذ منهم ويوضح أسمائهم، وفي أخرى يأخذ منهم دون أن يشير إلى من أخذ منه، وكان إلى جانب ما عرف عن علمه الغزير وثقافته الواسعة عُرف عنه كذلك ورعة ودينه، بل عاطفة دينيه متأججة، وتلك التي وضحت في جوانب مؤلفاته، مما جعله إمام عصره وشيخا لعلمي البيان والمعاني.

3.2. تلاميذ الشيخ عبد القاهر الجرجاني:

ومن تلاميذ الجرجاني الذين تملوا منه العلم والمعرفة نذكر :

- 1/- يحيى بن علي الخطيب التبريزي، قال طاش كبرى زاده في ترجمته " هاجر إلى أبي العلاء المعري، وأخذ عنه، وعن عبيد الله الرقي والحسن بن رجاء بن الدهان وابن برهان والمفضل القصباني وعبد القاهر الجرجاني" (8) .
- 2/- أبو ناصر أحمد بن إبراهيم بن محمد الشجري: ذكره (القفطي)، فقال: " قال ابن غياض الشامي الكفرطابي النحوي ونقلته بخطه في تذكرته في آخر نسخة المقتصد لعبد القاهر الجرجاني بالرى مكتوبا ما حكايته: " قرأ على الأخ الفقيه أبو نصر أحمد بن محمد محمد الشجري أيد الله - هذا الكتاب من أوله إلى آخره قراءة ضبط وتحصيل وكتبه عبد القاهر بن عبد الرحمان بخطه في شهر رمضان المبارك سنة أربع وخمسين وأربعمائة، حامداً لربه ومصليا على محمد رسوله وآله" (9).
- 3/- أحمد بن عبد الله المها باذي الضير.
- 4/- علي بن أبي زيد الفيصحي المتوفى سنة 516هـ، طرأ عليه أبو الحسين، فقرأ عليه، وأخذ عنه علي بن أبي زيد الفيصحي.

4.2. أهم مؤلفاته وآثاره العلمية: (10)

- 1/- كتاب شرح الفاتحة: وهو من كتبه التي لا نعلم عنها شيئا سوى ما قالوا عنه أنه في مجلد واحد.
- 2/- درج الدرر في تفسير الآيات والسور.
- 3/- المعتضد، ذكره القفطي في انبأ الرواة (ولقد طبع).
- 4/- الشرح الصغير.
- 5/- الرسالة الشافية (وهي في إعجاز القرآن الكريم وقد طبعها الدكتور محمد خلف الله أحمد، والدكتور محمد زغلول سلام، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم).
- 6/- دلائل الإعجاز: وهو دراسة بلاغية لإثبات إعجاز القرآن، ووضع نظرية لذلك .
- 7/- أسرار البلاغة: يحتوي هذا المؤلف أصول وقوانين الفنون البلاغية (11).
- 8/- المدخل في دلائل الإعجاز.

وتعتبر هذه المؤلفات لعبد القاهر الجرجاني من أهم الكتب التي تزخر بها المكتبة العربية، وذلك لاختلافها وتنوعها من نحو وبلاغة وصرف، وبعد مؤلفه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، من الكتب التي اشتهر بهما والتي نالت حظاً وفيراً من الدراسات حولهما.

3. الأسس الفكرية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني :

1.3. تعريف نظرية النظم:

1.1.3. في الاصطلاح اللغوي:

1/- لسان العرب: "نظم: التَّظْمُ: التَّأْلِيفُ، نَظْمُهُ يَنْظِمُهُ نَظْماً وَنِظَاماً وَنَظَّمَهُ فَانْتَظَمَ وَتَنَظَّمَ وَنَظَّمْتُ اللَّوْلُو، أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمْتُ الشعر ونظمته، ولقد نظم الأمر على المثل - وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نَظَّمْتُهُ.

والنظم: المنظوم، وصف بالمصدر، والنظم: ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما، واجدته نَظْمَةً، وَنَظَّمُ الحنظل: حبسه في صيبيائه⁽¹²⁾.

2/- (نَظَمَ) الأشياءَ نَظْماً: أَلَفَهَا وَضَمَّ بعضها إلى بعض واللؤلؤ ونحوه: جعله في سلك ونحوه، ويقال: نَظَمَ الخواص، الخواص: ضفره وشعره: أَلَفَ كلاماً موزوناً مقفى، ويقال نظم أمره: أقامه ورتبه. انتظم الشيء: تألف واتسق، يقال: نظمته فانتظم، ويقال: انتظم أمره: استقام، والأشياء جمعها وضم بعضها إلى بعض⁽¹³⁾.

3/- نظم الأشياء نظماً: أَلَفَهَا وَضَمَّ بعضها إلى بعض. واللؤلؤ ونحوه: جعله في سلك ونحوه وشعره: أَلَفَ كلاماً موزوناً مقفى، ويقال نظم أمره: أقامه ورتبه، انتظم الشيء تألف واتسق، والأشياء جمعها وضم بعضها إلى بعض. تناظمت الأشياء: تضامت وتلاصقت، يقال: تناظمت الصخور⁽¹⁴⁾.

2.1.3. المعنى الاصطلاحي عند النحاة:

ترددت كلمة النظم على أفواه الكثير من النحاة وكتبها أقلامهم، لكنها لم تتجلى بالمفهوم الشامل والمعنى الجلي إلا عند عبد القاهر الجرجاني "ترددت كلمة النظم على أقلام النحاة قبل عبد القاهر بمئات السنين، وقبل أن يحيلها عبد القاهر إلى نظرية بلاغية تنسب إليه حتى عصرنا هذا، كما عرفناه عند عبد القاهر قد عرفناه عند السابقين في وضوح تام"⁽¹⁵⁾، ونشير هنا إلى أن كلمة "النظم" قد عرفت قبل الجرجاني "فسيويوه يتحدث عن

معنى النظم وائتلاف الكلام، وما يؤدي إلى صحته وفساده وقبحه في مواضع كثيرة ومتفرقة من الكتاب. وقد عقد فصلاً أسماه، هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، منه مستقيم حسن ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب يضرب الأمثلة لكل نوع منها، مبينا فيها الصحة والفساد والحسن والقبح مما يبدو معه الكلام متلائماً أو متنافراً⁽¹⁶⁾.

وكذلك نجد ما جاء في قول بشر بن المعتمر "ونقرأ في صحيفة بشر بن المعتمر ما يفيد النظم حين يقول" فإذا وجدت اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها فلا نكرها على اغتصاب الأماكن. والنزول في غير أوطانها"⁽¹⁷⁾.

والعتابي - وقد كان حيا في خلافة المأمون يرى "أن الألفاظ للمعاني بمثابة الأجساد للأرواح فينبغي أن توضع موضوعها، وإلا فسدت الصورة وتغير المعنى، وفقدت الحسن والجمال وساء نظمها وشان خلقها، وأقرأ قوله: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما نراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرها، أو أخرت منها مقدما، أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما لو حول رأي إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الخلقة، وتغيرت الحلية"⁽¹⁸⁾.

وكذلك الجاحظ الذي هو الآخر كان له تعبير عن النظم، وذلك في قوله "وأجود الشعر إذا رأيت متلاحم الأجزاء، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحداً. وسبك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان عما يجري الدهان، فالنظم عنده في تلاحم الأجزاء وحسن السبك"⁽¹⁹⁾. وابن قتيبة كانت له اهتمامات بالعلاقات النحوية "بين ألفاظ العبارة وقد أفرد باباً لتأويل الحروف التي ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم"⁽²⁰⁾.

وإبراهيم بن المدبر ينصح الكتاب ويوضح لهم ما يجب مراعاته في الكتابة بما هو من صلب النظم، فيقول "فإنما يكون الكاتب كاتباً إذا وضع كل معنى في موضعه وعلق كل لفظة على طبقها من المعنى، فلا يجعل أول ما ينبغي له أن يكتب في آخر كتابه ولا آخره في أوله"⁽²¹⁾.

والمبرد كان يرى أن البلاغة تكمن في حسن النظم ولذلك عما جاء في قوله "فحق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاوضة شكلها"، ونجد أيضاً أبي بكر الصولي يتحدث عن "نقد الشعر وترتيب الكلام ووضع مواضعه وحسن الأخذ لا نراه إلا لمن صحت طباعهم وراضوا بالكلام"⁽²²⁾.

والسيرافي النحوي حوار مع أبي بشر متى بن يونس حول النحو والمنطق، ومكانة البلاغة بينهما يبين أن المراد بعلم النحو ليس حركات الإعراب فقط وإنما هو في وضع الكلمات وترتيبها وأن المراد بالمعاني هو معاني النحو من حيث التقديم والتأخير وتخوي الصواب، فعندما يقول متى بن يونس للسيرافي، يكفي من نعتكم هذا الاسم والفعل والحرف في ابتلع بهذا المقدار إلى أغراض قد هذيتها بي يونان... ينبري السيرافي مصححاً وضع النحو وقيّمته في النظم قائلاً: "أخطأت لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وضعها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف ويستمر السيرافي في جدله حتى يقول: إن المعاني هي معاني النحو بالتقديم والتأخير وتخوي الصواب" (23)، والرماني حين يتحدث عن التلاؤم، فإنه "يقصد به حسن النظم وجودة السبك حتى يحلو في السمع، ويخفف على اللسان" (24)، أما الخطابي يبين أن النظم ليس سهلاً ميسوراً، وإنما يحتاج إلى ثقافة ومهارة، فيقول "وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر. لأنها لجام الألفاظ، وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه مع بعض. فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان" (25).

أما أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين يعقد الباب الرابع في البيان عن حسن النظم وجودة الوصف والسبك، وذلك في قوله "وحسن الوصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يعتمد الكلام، ولا يعني المعنى، وتضم كل لفظة إلى شكلها، تضاف إلى لغتها وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيرها منها وصرفها عن وجودها وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها" (26)، ويرد الباقلاني على الرماني قوله في أن بلاغة القرآن تقع بوجه من الوجوه العشرة التي ذكرها للأقسام البلاغة، فالتشبه عنده ليس معجزاً ولا التجنيس ولا المطابقة، وإنما الإعجاز للألفاظ والنظم والتأليف" (27).

وربما كان القاضي عبد الجبار أكثر العلماء وضوحاً في تناوله للنظم قبل الجرجاني حين عقب على أستاذه أبي الهاشم الجبائي في اعتبار الفصاحة في اللفظ، فرأى أن يكمل عمل أستاذه حين أغفل تركيب الكلام الذي عليه عماد البلاغة، فيقول "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة، صفة وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع لأنه إما أن يعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها" (28).

فعبء الجبار يوضح النظم بالتثام الكلمات بعضها مع بعض ومراعاة الإعراب والحركات، فيجعل النحو ركنا ركينا في النظم حتى تتحقق له البلاغة⁽²⁹⁾.

وابن شهيد يحتم على الكاتب أن يختار أملح النحو وأفصح الغريب وهو يريد بملاحة النحو: اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى، فقد يكون الكلام مستقيماً من الوجهة النحوية، ولا يكون مستقيماً من الوجهة البيانية، فإذا البلاغة في الواقع تبنى على سلامة التركيب، والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من الغلط حتى يراد وزنه بالموازن النحوية، وإنما هو التركيب الذي يستوفي الدقائق المعنوية التي يهتم بتقيدها، علماء المعنى⁽³⁰⁾.

ومنه نقرأ أن "النظم" لم يكن مجهولاً قبل عبد القاهر الجرجاني، وإنما كان موجوداً وتطرق إليه بعض النحاة أمثال: سيبويه بشير بن المعتمر، العتابي، الجاحظ، ابن قتيبة، إبراهيم، بن المدبر المبرد، أبي بكر الصولي، السيراقي النحوي، الرماني، الخطابي، أبو هلال العسكري، الباقلاني، القاضي عبد الجبار، ابن شهيد... وغيرهم، فكل منهم قد تطرق إلى النظم، ولكن كل واحد منهم عبّر عنها بطريقته الخاصة، وهذا ما صرح به عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز"/ المتمثل في قوله: "وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم، وتفخيم قدره، والتنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه"⁽³¹⁾.

فمفهوم النظم كان في أوله عبارة عن آراء بسيطة أدلى بها بعض النحاة ثم أخذت تتسع شيئاً فشيئاً، فطورها عبد القاهر الجرجاني حيث ارتبطت نظرية النظم بقضية الإعجاز، فلا يحاول بذلك تطوير النحو العربي من خلال الوقوف على أهم القضايا الذي تناولها السابقين كاللفظ والمعنى، والكلام والبلاغة... إلخ.

وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني كلمة النظم في كثير من المواضع ومنها قوله: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً، لا يعترضه الشك أن لا نَظَمَ في الكَلِمِ ولا ترتيب، حتى يُعَلَقَ ببعضها ببعض، ويُبَيَّنَ بعضها على البعض، وتُجْعَل هذه بسبب من تلك. هذا مالا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس"⁽³²⁾.

وهنا يشير إبراهيم مصطفى في كتابه "إحياء النحو" إلى أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني "رسم في كتابه دلائل الإعجاز طريقاً جديداً للبحث النحوي، تجاوز أواخر الكلم، وعلامات الإعراب، وبين أن الكلام نظاماً وأن رعاية هذا النظم وإتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام، وأنه إذا عدل بالكلام عن سنن هذا النظم لم يكن مفهماً معناه، ولا دالاً على ما يراد منه، وضرب المثل لذلك بالمطلع المشهور، وهو:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

لوخولف فيه النظم وعُدِل به عن سننه وقواعده، فقليل :

نبك قفا حبيب من ومنزل وذكرى

لكان لغواً من الكلام وعَبَثاً: ثم بين أن هذا النظم يشمل ما في الكلام من تقاسم وتأخير، وتعريف وتنكير، وفصل ووصل، وعدول عن اسم وفعل، أو عن صيغة إلى أخرى، وغير هذا من سائر أحوال الكلمة إذا أُلْفِت مع غيرها لثفهم⁽³³⁾، وكذلك نجد أن صالح بلعيد قد اعتبر نظرية النظم عند الجرجاني كما جاء في قوله: "التأليف والتنظيم والترتيب والجودة ومن ذلك صنف النظم في علوم البلاغة باعتباره يسعى إلى رصف الكلمات وترتيبها وجودتها، وفي حسن التغير ومعرفة الموقع المناسب"⁽³⁴⁾.

وما يمكننا أن نشير إليه أن عبد القاهر الجرجاني تناول في كتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة كل ما من شأنه أن يضيف لبلاغة الكلام وقد وضع شروطاً لذلك، فدرس علم المعاني وعلم الألفاظ وكل ما يخص علم البلاغة العربية، كما أن نظرية النظم عند الجرجاني "نظرية كبيرة عامة، وعنده أن دراسة النظم لا تقف عند أمر الصحة بل تعدوه إلى تعليل الجودة، وبعبارة أخرى يمزج الجرجاني النحو بما سماه البلاغيون فيما بعد علم المعاني وله في ذلك حكمة بالغة"⁽³⁵⁾.

ويشير الشيخ عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز: "إن الفصاحة والبلاغة راجعتان إلى المعنى، بهذه العبارة علمت أن الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقتيهما أوصاف راجعة إلى المعاني وإلى ما يدل عليه بالألفاظ، دون الألفاظ نفسها، وحكى عن تقدمه: إنك لا تقدم شعراً حتى يكون قد أودع حكمة أو أدبا، أو استعمل على تشبيه غريب ومعنى نادر"⁽³⁶⁾.

فنجد أن نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني تتمحور في مجملها على فصاحة الكلام وبلاغته وترتبط كذلك بعلم النحو وأحكامه، وهذا ما جاء في قوله: "لا يقصد من النظم إلا تأليف الكلام وفقاً لأبواب النحو المختلفة"⁽³⁷⁾، فنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني تركز على معاني النحو وأحكامه فكان يهدف من خلال نظريته هذه أن يظهر روعة القرآن وإعجازه، من خلال كتابه "دلائل الإعجاز" فقد خطى خطوات كبيرة في ميدان البلاغة العربية فساهم في ازدهارها من خلال نظريته "النظم"، التي كانت منطلقاً معرفياً حيث أقامها على ثنائيتين لغويتين هما: الألفاظ والمعاني.

فالأساس الذي بنيت عليه هذه النظرية هو معاني النحو، كما جاء في قول سناء حميد البياني: "وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئاً غير توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، وإنما إن يقينا الدهر نجهد أكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكا ينظمها وجامعاً يجمع شملها، ويجعل بعضها بسبب من بعض، غير توخي معاني النحو وأحكامه فيها طلبنا ما كل محال دونه"⁽³⁸⁾.

2.3. أسس نظرية النظم: نجد أن هذه النظرية قد وجدت شرحاً وتمثيلاً في كتاب دلائل الإعجاز ممثلاً في الأسس نوردها على النحو التالي:

1.2.3. نظم المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ حذوها: لقد تحدث الجرجاني عن "المعاني النفسية مرات كثيرة، وعندها عنصراً أساسياً وجوهياً في عملية النظم، فالنظم عنده ليس نظاماً للألفاظ أو الحروف، بل نظاماً للمعاني في النفس أولاً، وإذا تم ذلك فليس للألفاظ إلا أن تطبع سيدها- المعاني- وتحذو حذوه خطوة، لا تحيد عن ذلك قيد أنملة، وعليه فإذا فرغ المتكلم من نظم المعاني فالألفاظ تترتب على حسب ترتب المعاني في النفس، دون أن يستأنف المتكلم فكراً جيداً لترتيب الألفاظ"⁽³⁹⁾.

ونجد ذلك في كتابه دلائل الإعجاز في قوله: "إذا وجب للمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وأن يكون الفكر في النظم الذي يتوابعه البلغاء فكراً في نظم الألفاظ أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجري بالألفاظ على نسقها"⁽⁴⁰⁾، فالملاحظ على عبد القادر الجرجاني أنه اهتم بالمعنى و ما يتركه في النفس من أثر فالنظم يقوم على إدراك المعاني النفسية التي تتم في حسن اختيار الألفاظ وترتيبها.

وبين لنا محمود أحمد نخلة أهمية هذا الركن عند عبد القاهر الجرجاني فيقول "وقد بنى عبد القاهر على هذه الفكرة الركن الأول من أركان نظريته في النظم وهو ما أسماه "ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها"، كما عد تمام حسن عملية النظم النفسي بأنها المرحلة الأولى من مراحل إنتاج الكلام، فقال: "يرى عبد القاهر أن المقصود بالنظم إنما هو نظم المعاني النحوية في النفس... ومعنى النظم أن يعتمد المتكلم إلى اختيار ما يناسب غرضه من هذه المعاني إذ يوردها على خاطره قبل أن يبني لها الكلمات"⁽⁴¹⁾.

2.2.3. التعلق النحوي: وهو الأساس الثاني الذي يراه أحمد نخلة يقول عن الجرجاني: "ولقد قادته فكرة ترتيب الألفاظ حسب ترتيب المعاني في النفس إلى فكرة أخرى، تعد فيما نرى الركن الثاني من أركان نظريته، وهي فكرة التعلق النحوي، وقد جعل تمام حسن هذه الفكرة- التعلق النحوي- المرحلة الرابعة من مراحل إنتاج الكلام، فقال: وتتمثل هذه المرحلة في أمور مثل المطابقة وحروف الربط التي تؤدي إلى توثيق الأواصر بين عناصر الجملة على صورة تتحدى الفصل والاعتراض والاستثار والحذف إلى آخره، مما يجعل المعنى الكلي للكلام واضحاً، ولا سيما إذا أعانت القرائن السياقية والخارجية على هذا الوضوح"⁽⁴²⁾.

3.2.3. أساس تخير الموقع: "وإذا كان كما سبق وأن قرره عبد القاهر الجرجاني، وهو أن اللفظة لا معنى لها ولا مزية حتى تضم إلى أخواتها في تأليف دقيق، وعلى نحو مخصوص، وأن التعلق هو ركن أساس في هذه النظرية،

فإنه يجب أن يراعي موقع الكلمة من بين أخواتها فالتعلق وحده غير كاف حتى ينتفي كل لفظ مكانه الملائم، أو لكل مكان لفظه المناسب بحيث لو حول ذلك اللفظ من مكانه، أو أزيل عن ذهب الرونق وزال الجمال" (43)، وهنا يقول الجرجاني "وإذا كان كذلك فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى السورة التي يكون بها، الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إليها إلا بضم كلمة إلى كلمة... وهل يقع في وهم أحدهم، وإن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية؟... وهل تجد أن أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جارئاتها، وفضل مؤانستها لأخواتها" (44).

4.2.3. معاني النحو: نجد أن صالح بلعيد قد تناول معاني النحو ضمن الأركان العامة لنظرية النظم، وذكره محمود أحمد نخلة فقال: "وهو الركن الرابع والأخير من أركان نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وقد عني عبد القاهر الجرجاني بهذا الركن عناية بالغة، لأنه ثمرة النظم ومحصوله، وسمت بناء حميد البياني هذا الركن بـ (الوجوه والفروق)، وجعلته الركن الرابع من أركان هذه النظرية، وهذه التسمية هي أدق من التسمية الأولى كما سيأتي" (45)، ويقول الجرجاني في هذا السياق "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها" (46).

4. نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

نجد أن نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني كان لها أثر كبير في إعجاز القرآن: "وبخلص من كل ذلك أن الذي كان عليه العلماء في القرآن أنه معجز في نفسه، وأنه في نظمه، وتأليفه على وصف لا يهتدي الخلق إلى الإتيان بكلام هو في نظمه وتأليفه على هذا الوصف، والداء العياء أن ليس علم الفصاحة وتمييز بعض الكلم من بعض بالذي تستطيع أن تفهمه من شئت ومتى شئت حتى تظفر بمن له طبع إذا قد جتته وري، وقلب إذا رأيته رأى" (47).

يحمل ما في الرسالة لعبد القاهر الجرجاني وظاهر أنه كما يقول ناشرها: "كتبها ليثبت حقيقة الإعجاز لا لبيان أسرارها"، أما تفصيل القول في أسرار الإعجاز من جهة بلاغة الكلام ونظمه فقد تعرض له في كتابه الكبير المسمى "دلائل الإعجاز"، وهذه كلمة عنه "دلائل الإعجاز وكتبه عبد القاهر على ما يظهر من اسمه، ليستعرض فيه أدلة إعجاز القرآن إنما هو بالنظم، وليس بالصرف ولا بشيء من هذا القبيل الذي قال به بعضهم كالأنباء

بالغيوب أو أمية الرسول، ولذلك نراه يقول في المدخل إلى الكتاب: " هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وعلى كل ما يكون به النظم دفعة" (48)، ثم يقول بعد حديث عن جهل الناس بعلم البيان وجهلهم بدقائق الكلام ولطائفه وأثر رأيهم على الشعر وأنه ضرب من التكلف وباب من التعسف، يقول " أنه أدرك أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت هي أن كان على حد الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتبها إلى غاية لا يطمح إليها الفكر، وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاوز في الفصاحة والبيان وتنازعا فيهما قصب الرهان ثم بحثوا عن العلل التي كان بها التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض" (49).

ونجد كذلك أن الجرجاني يرفض الاكتفاء في الإثبات إعجاز القرآن بما قد ثبت من عجز العرب عن مجاراته وأن غيرهم والشأن كذلك يكون أعجز، فيقول " وكيف يرضى بذلك والقرآن قائم، والحجة على علو شأنه لائجة منه وعلى أساس من آرائه تلك، وعقيدته هذه، في إعجاز القرآن وأنه بالنظم وأن ذلك مما يمكن بيانه، على أساس من ذلك يمضي الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز"، يعقد الأبواب ويقيم الفصول لإثبات ما اعتقد وتوضيح ما انعقد منه عليه القلب في القضية، فيذكر أنه: " منذ خدم العلم لم يزل ينظر فيما قال العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها ... حتى وجد المعول على أن هاهنا نظماً وتركيباً، وتأليفاً وترتيباً، وصياغة وتصويراً ونسجاً وتخييراً" (50).

برع عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز"، حيث خدم العلم وحاول وضع أسس ودعائم للقواعد اللغة والنحو العربي، " فالكلام عنده كما هو عند الذين سبقوه، ذو مستويات عدة بدءاً من الكلام العادي مروراً بالكلام الأدبي إلى النص القرآني الذي هو كلم معجز، ولا يمكن للإنسان أن يدرك الإعجاز وأن يحدد مواطنه إلا إذا كان عالماً بالشعر وحدوده، متفطناً لفصاحته وبيانه ومدركاً لخصائصه الفنية، وذلك أنه إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كان على حد الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتبها إلى غاية لا يطمح إليها الفكر وكان محالاً أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاوزوا في الفصاحة والبيان، وتنازعا فيها قصب الرهان" (51)، فالكلام عند عبد القاهر الجرجاني ذو مستويات وحتى تدرك الإعجاز يجب أن تكون عالماً بالشعر وحدوده وعارفاً للفصاحة والبلاغة وأوجهها، وكذلك أن تدرك خصائص الشعر.

وهنا نشير إلى أن " كلا النصين القرآني والأدبي، ينتمي إلى اللغة. ولكن فصاحة الأول غير فصاحة الثاني، والغاية غير الغاية. على الرغم من بلوغ العرب أوج الفصاحة والبلاغة. هذه المعرفة هي التي جعلتهم ينبهرون بفصاحة النص القرآني ولو لم يكونوا. أصحاب بلاغة ما ذهلوا لفصاحته وبلاغته. وهذا يعني أن الفصاحة عند

عبد القاهر الجرجاني مراتب وموطن لا بد من إدراكها. ووضع اليد عليها للفرقة بين الكلام العادي والكلام الأدبي من جهة، وبين كلام البشر والكلام المعجز من جهة أخرى⁽⁵²⁾.

يبقى الاختلاف بين النص القرآني والنص الأدبي، رغم أن كلاهما ينتمي إلى اللغة، إلا أن الفصاحة نالت مراتب كبرى في النص القرآني، وعجز العرب على إتيان مثله وقد فضل عبد القاهر الجرجاني ذلك، حيث صنف الكلام إلى مراتب منها العادي ومنها الأدبي ومنها المعجز وهو كلام الله تعالى.

تعرض عبد القاهر الجرجاني في كثير من المواضيع إلى قضية اللفظ والمعنى، وهذا ما يشير إليه إبراهيم صدقة في كتابه النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي، فيقول: "يتمحور تراث عبد القاهر الجرجاني حول فكرة النظم التي استنبطها من خلال نظريته العميقة للغة والشعر، والنحو والبلاغة، ومن اطلاعه على تراث الذين سبقوه في العلم والمعرفة. وقد استطاع أن يبلور كل ذلك في منهج لغوي شامل يعتز به كل باحث في تراثنا العربي الأصيل، لأنه استطاع أن يوحد بين وحدات النص، وخاصة بين اللفظ والمعنى وأن يربط بينهما. ربطاً متيناً. وأصبحت اللغة عنده تعني مجموعة من العلاقات تتفاعل فيما بينها لتشكيل نسيجاً لغوياً هائلاً تدعن إليه النفس وتهواه الأفتدة وتسرع به العيون"⁽⁵³⁾، وعليه فإن نظرية النظم تتبلور عند عبد القاهر الجرجاني من خلال نظريته الثابتة لعلوم اللغة والشعر، والنحو والبلاغة، والذين سبقوه في العلم والمعرفة.

وقد أولى عبد القاهر الجرجاني أهمية كبيرة لتناسب دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها وذلك " أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، وإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق. فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواضعه البلاء فكراً في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن وهم يتخيل إلى من لا يوفق النظر حقه، معتمداً في تصوره لتشكيل النص والتحام بناءه، على دعامتين أساسيتين هما: " جنس المزية " و " أمر المزية "، وهما أساس النظم عنده، ويعرف الدعامة الأولى بقوله " إنها من حيز المعاني دون الألفاظ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك وتعمل رويتك وتراجع عقلك وتستنجد في الجملة فهمك"⁽⁵⁴⁾.

لقد ركز الجرجاني في نظريته على تناسب الألفاظ وترتيب المعاني وقد أشدّ بهما في كثير من المواضيع في كتابه "دلائل الإعجاز"، وفي هذا السياق يشير وليد محمد مراد في كتابه نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، فيقول " لم تكن نظرية النظم التي وضعها عبد القاهر الجرجاني وليدة اللحظة والصدفة بل كانت نتيجة جهود فكرية متواصلة شارك فيها الباحثون في مجال الفكر والمعرفة منذ عصر الجاحظ أو قبل ذلك

بكثير" ⁽⁵⁵⁾، فنظرية النظم التي أبرز معالمها عبد القاهر الجرجاني إلى حيز الوجود في صورة النظم، التي يرى فيها " الإعجاز القرآني مع حقيقة العلاقة الرابطة بين اللفظ والمعنى واللغة والفكر، بأنها علاقة عضوية قائمة، يمكن إدراكها بالفكر والذوق" ⁽⁵⁶⁾، ولهذا تعتبر نظرية النظم هي صورة الإعجاز القرآني، لأن عبد القاهر الجرجاني وزان بين العلاقات كاللفظ والمعنى واللغة والفكر، وجعلها جماليات الفكر والذوق.

جعل عبد القاهر الجرجاني نظريته - نظرية النظم - بمثابة صلة وصل يربط فيها كل من الإعجاز والنظم " ربط عبد القاهر الجرجاني بذلك بين نظريته وبين الإعجاز واللفظ والمعنى والتصوير، ليخدم القرآن ويبرز الإعجاز فيه"، أما فيما يخص رأيه حول قضية الإعجاز " رد عبد القاهر الجرجاني إعجاز القرآن إلى خصائص في أسلوبه وراء جمال اللفظ وحسن المعنى، أي إلى خصائص في نظمه، خصائص تَطرد في جميع آياته، اهتدى إليها بنظرة عبد الجبار وغيره من السابقين له في معرفة دلائل الإعجاز" ⁽⁵⁷⁾.

أما بالنسبة إلى علم البلاغة فإن عبد القاهر الجرجاني يرى أنه " علم واحد تنفرع مباحثه، وسمها في الدلائل علم المعاني أو باسم النظم، وهو اصطلاح كان شائعاً في بيئة الأشاعرة، إذ كانوا يعللون إعجاز بالنسبة لنظمه على نحو ما مر معنا عند الجاحظ والباقلاني. وأن المعتزلة عللوا الإعجاز بالفصاحة بدلا من النظم والتي يتفاضل بها البلغاء، وأنكروا أن يكون الإعجاز مرده إلى نظم مخصوص، ورده إلى الفصاحة" ⁽⁵⁸⁾، وعليه فإن النظم هو مصطلح شائع في بيئة الأشاعرة وقد ارتبط الأخير بالإعجاز والفصاحة والبلاغة.

يؤكد عبد القاهر الجرجاني في أكثر من موضع على أهمية النظم وتوحي معاني النحو وأحكامه بين الكلم بأنه كان من أعجب العجب أن يزعم زاعم أنه يطلب المزية بنظم الكلام، ثم لا يطلب المزية في معاني النحو وأحكامه وتوحيها فيما بين الكلم، فإن اقتصر البعض على المزية المحصورة بنظم الكلم وبأن النظم هو نظم الألفاظ دون المعاني، دون المزية الأخرى في توحي معاني النحو فإنهم لن يصلوا إلى حقيقة الإعجاز" ⁽⁵⁹⁾، ويؤكد هنا عبد القاهر الجرجاني على أنه إذا اعتبرت طريقة النظم يجب اعتبار المزية هي الأخرى في الفصاحة وأنه لا يعقل أن يكون اختصاص القرآن في النظم دون الفصاحة.

وبيّن لنا عبد القاهر الجرجاني " أن سر الإعجاز كامن في نظمه وسحر بيانه، يعلل له بتوحي معاني النحو وترتيب المعاني في النفس، ليأتي الأسلوب في غاية من القوة والظهور" ⁽⁶⁰⁾، ويبقى سر الإعجاز يكمن في نظمه وبيانه.

وهناك عدة ظواهر ساهمت في إبراز القيمة العلمية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، ونذكر منها: " ظاهرة الإيقاع الموسيقي الناشئة من تخير الألفاظ ونظمها في نسق خاص، و هي أوضح ما تكون في الأسلوب

القرآني وعميقة كل العمق في بنائه الفني، ثم ظاهرة التناسق الفني في التعبير مع المعاني النحوية والبلاغية، والفصاحة مع التناسق النفسي في ترتيب المعاني في النفس الإنسانية، والذي تنبه إليه الكثيرون، ثم تكلم عن التناسق في الانتقال من غرض إلى غرض من أجل الوصول إلى أعلى درجات التناسق الفني المتوفر في آيات القرآن الكريم⁽⁶¹⁾، وتبقى قضية اللفظ والمعنى من أهم القضايا التي تناولها الجرجاني والتي كانت ركيزة النظم، وكذلك الإيقاع الموسيقي الناتج عن انسجام الألفاظ ونظمها وكذلك التناسق الغني والفصاحة.

ربط عبد القاهر الجرجاني "بين نظرية النظم وبين إعجاز القرآن، واللفظ والمعنى مع التصوير الفني، ومع الفصاحة والبلاغة ربطا متينا، لإبراز العلاقة القائمة بين اللغة والفكر وهدفه من ذلك هو خدمة القرآن الكريم وإظهار إعجازه، من أجل هذا الهدف انطلق إلى الغرض اللغوي والنقدي في تحليل النصوص مع المقارنة والموازنة. وهي نفس الأهداف التي سعى إليها المتكلمون في إعجاز القرآن الكريم"⁽⁶²⁾، فنجد أن عبد القاهر الجرجاني قد قام بتفسير فكرة الإعجاز على أساس نظرية النظم، وربط كل من النظم بالإعجاز، حيث رأى أن القرآن الكريم معجز في نظمه.

أما بالنسبة للنقد عند عبد القاهر الجرجاني، فقد ارتبط عنده بالإعجاز في القرآن، وهذا ما يوضحه دكتور حميد قبائلي فيقول "ارتبط النقد عند عبد القاهر الجرجاني بفكرة الإعجاز في القرآن الكريم، فقد انطلق من كون القرآن معجزاً، ثم رفض أن يكون مواطن الإعجاز الألفاظ أو الفواصل أو الاستعارة، ورأى أن الإعجاز في النظم والتأليف، إذ يقول أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ومجاري ألفاظها، ومواقعها وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتببيه وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان وصفة وتبيان وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكائها، ولفظة يُنكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى، وأخلق بل وجدوا اتساقا بمر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتثاما واتقاناً وإحكاماً"⁽⁶³⁾، وعليه تعتبر فكرة أن القرآن معجز في النظم والتأليف الانطلاقة الأولى لعبد القاهر الجرجاني في تأسيس نظريته.

ويظهر لنا جليا اهتمام عبد القاهر الجرجاني بالمعنى، وهذا من خلال تقسيمه للمعاني إلى قسمين، وهذا ما أشار إليه جمال محمد صالح حسن في كتابه الجهود النقدية والبلاغية عند العرب، فيقول "وقد قسم عبد القاهر الجرجاني المعاني إلى قسمين، الأول عقلي: تتفق العقلاء على الأخذ به، والحكم بموجبه، والثاني تخيلي لا يمكن أن يقال إنه صدق إنما أثبت ثابت، وما نفاه منفي"⁽⁶⁴⁾.

كما قسم عبد القاهر الجرجاني التصرف في المعاني إلى تحقيق وتخيل وقد فصل في كل واحد منهما: "وينقسم التصرف في المعاني على ما يقول عبد القاهر الجرجاني إلى تحقيق وتخيل، والفارق بينهما، أن المعنى الحقيقي ما

يشهد له العقل بالاستقامة وتتضافر العقلاء من كل أمة على تقريره العمل بموجبه كقول المتنبي " لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم" فمعنى هذا البيت مما تلقاه العقلاء بالقبول ووضعوه بمقدمة ما يتنافسون فيه من الحكم البالغة، وكذلك اتخذ الأمراء الراشدون قاعدة يشدون بها ظهر سياستهم و يستفيدون منها في حماية شعوبهم ومن الذي يجهل أن حياة الأمم تنتظم بالوقوف في وجه من يتهافت به السفه على هدم شرفها والاستهتار بحقوقها، والتخيلي هو الذي يرده العقل ويقضي بعدم انطباقه على الواقع" (65).

رغم مرور السنين إلا أن ما جاء به عبد القاهر الجرجاني ونظريته " النظم" ما زال يتم تداولها، وهذا ما نجد عند محمد عابد الجابري صاحب مشروع نقد العقل العربي" فمحمد عابد الجابري يربط تراث عبد القاهر الجرجاني بالمتلقي الذي يساهم في إنتاج المعنى. لأن البيان لا يتكون بالفكر وحده أو باللفظ وحده، إنما يتكون من نظام خاص يقوم به العقل: "إن "أسرار البلاغة" و" دلائل الإعجاز" في الكلام العربي المبين كامن في كون الأساليب البلاغية العربية تجعل المخاطب أو المتلقي، يساهم في إنتاج المعنى المقصود بواسطة عملية استدلالية ينتقل فيها من خلال اللفظ، ومعناه المتعارف عليه، إلى المعنى الذي يقصده المتكلم" (66).

يعتبر التمييز بين اللغة والكلام من أهم الأسس التي قامت عليها نظرية النظم، وهذا ما يشير إليه حمادي صمود فهو يرى " أن الذي يتأمل نظرية عبد القاهر الجرجاني في نظم، والأسس التي قامت عليها، المتمثلة في التمييز بين اللغة والكلام، يرى أنها تضاهي علم اللسان الحديث وما توصل إليه من آراء ونظريات في دراسة النص الأدبي وطريقة نظمه وتفكيك تراكيبه" (67).

وفي هذه النظرية يبين لنا عبد القاهر الجرجاني أنها "نظرية بها أسرار جمال النظم وتعود إلى تنسيق الكلام على وجه خاص تابع للمعنى النفسي، ولم يرد بها ترجيح جانب المعنى على جانب اللفظ ولم يدع بها الأدباء إلى الانصراف عن جمال الصياغة، لأن هذه الصياغة هي التي ترفع أسلوبها على أسلوب. وتجعل بعض القول في القمة وبعضه في الحضيض" (68)، ولهذا ركز عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم على تنسيق الكلام، لأن له دور مهم في المعنى النسقي فيه.

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول.

5. خاتمة:

- ونخلص في الأخير أن الأصول الفكرية لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني تمحورت حول:
- تأثره بالمدرسة الأشعرية الفكرية، حيث اعتمد المبدأ الأشعري في الكثير من الدراسات اللغوية والتي من بينها الانتقال من الدال إلى المدلول.
 - نجد أيضا سبب تبلور فكر ونشوء نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، هو الممارسة القبلية للقضية الإعجاز القرآني لدى الكثير من النحويين والبلاغيين ممن سبقوه وكانوا قبله.
 - فحاول الكثير إرجاع نظرية النظم إلى كتاب أرسطو "فن الشعر" والبعض الآخر ربطها بالهندود، وهكذا تعددت الآراء وتباينت حول الأصل الفكري لنظرية النظم، ولكن ما هو مؤكد أن النظم عرف قبل عبد القاهر الجرجاني بزمن طويل.
 - فمفهوم النظم نطقت به أقلام النحاة أمثال سيبويه وبشر بن المعتمر، العتابي والخطابي، والجاحظ، المبرد، أبو هلال العسكري، الرماني، الباقلائي، القاضي عبد الجبار فلكل واحد منهم كان له رأيه الخاص في النظم فوظفها بأسلوبه وطريقته التي تناسبه، ومن هنا انتفع عبد القاهر الجرجاني من جهود السابقين في خلق نظرية النظم وتحديد معالمها وأسسها وإظهارها على الساحة اللغوية.
 - وكان الدافع الكبير في نشوء نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني هو إطلاعه على أهم الأعمال والكتب التي تناولت قضية الإعجاز القرآني، حيث أخذ منهم ما رآه متفق مع نظريته وأضاف الكثير وكان هدفه الأسمى هو دفاع عن الكتاب العزيز ألا وهو القرآن الكريم واللغة العربية بعد ما شهدت الصراعات وحروب عدة للحملة اليونانية (لفلسفة اليونان ومنطقهم).
 - أثر امتزاج الثقافات على الثقافة النحوية، والتشكيك في القرآن، وإعجازه، ومن هنا ألف عبد القاهر الجرجاني كتابه الشهير "دلائل الإعجاز"، الذي يعتبر من أمهات الكتب والذي وضع من خلاله أن الإعجاز لا يكن في اللفظ وحده ولا في المعنى وحده، وإنما يكمن الإعجاز في النظم.

6. الهوامش:

¹ جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي: أنباء الرواة على أنباء النحاة، ج2، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1406هـ - 1986م، ص 188.

- ² رسالة ماجستير في علوم البلاغة: بعنوان " مصادر الإمام عبد القاهر الجرجاني في بلاغته"، الطالبة هند جميل صالح بابة، إشراف علي محمد حسن العماري، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 1407هـ - 1777م، ص 2-3.
- ³ المرجع السابق: رسالة ماجستير في علوم البلاغة: بعنوان " مصادر الإمام عبد القاهر الجرجاني في بلاغته"، ص 4.
- ⁴ جمال الدين أبي الحسن، علي بن يوسف القفطي: إنابة الرواة على أنبأ النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت- لبنان، 1406هـ - 1906م، ص 189.
- ⁵ المرجع نفسه: ص 21.
- ⁶ المرجع السابق: إنابة الرواة على أنبأ النحاة، ص 21.
- ⁷ المرجع نفسه: ص 21.
- ⁸ المرجع السابق: إنابة الرواة على أنبأ النحاة، ص 23.
- ⁹ المرجع نفسه: ص 24.
- ¹⁰ المرجع نفسه: ص 24-25.
- ¹¹ المرجع السابق: إنابة الرواة على أنبأ النحاة، ص 26.
- ¹² ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، ج5، دار المعارف، القاهرة، ص 4469.
- ¹³ المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425مصر، هـ - 2004م، ص 933.
- ¹⁴ المعجم الوجيز: تأليف ونشر مجمع اللغة العربية، ط1، 1400هـ - 1980م، مصر، ص 623.
- ¹⁵ عبد القادر حسين: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة- مصر، 1998، ص 374.
- ¹⁶ المرجع نفسه: 374.
- ¹⁷ المرجع نفسه: ص 375.
- ¹⁸ المرجع السابق: أثر النحاة في الدرس البلاغي، ص 375.
- ¹⁹ المرجع نفسه: ص 375.
- ²⁰ المرجع نفسه: ص 376.
- ²¹ المرجع نفسه: ص 376.
- ²² المرجع السابق: أثر النحاة في الدرس البلاغي، ص 376.
- ²³ المرجع نفسه: ص 376.
- ²⁴ المرجع نفسه: ص 377.
- ²⁵ المرجع نفسه: ص 377.
- ²⁶ أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: محمد اليحاي، دار الفكر العربي، ط2، د- ت، ص 167.
- ²⁷ المرجع السابق: أثر النحاة في الدرس البلاغي، ص 377.
- ²⁸ المرجع نفسه: 377-378.

- ²⁹ المرجع نفسه: ص 378.
- ³⁰ المرجع السابق: أثر النحاة في الدرس البلاغي، ص 378.
- ³¹ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت- لبنان، 2001، ص 93.
- ³² عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، ص 55.
- ³³ إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، 2012، ص 25.
- ³⁴ صالح بلعيد: نظرية النظم، دار هومة، الجزائر، 2002، ص 134.
- ³⁵ محمد مندور: في الميزان الجديد، دار نخضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د-ط- ت، ص 181.
- ³⁶ محمد بن علي بن محمد الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق: عبد القادر حسن، مكتبة الآداب، طبعة جديدة، 1418هـ- 1997م، ص 13.
- ³⁷ وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، دمشق، 1403هـ- 1983، ص 102.
- ³⁸ سناء حميد البياني: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، دار وائل للنشر، ط1، عمان -الأردن، 2003م، ص 13.
- ³⁹ عمر بوقمرة: أسس نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث، مجلة جسور المعرفة، العدد العاشر، جوان 2017، ص 173-174.
- ⁴⁰ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت- لبنان، 2001، ص 43.
- ⁴¹ المرجع السابق: عمر بوقمرة: أسس نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث، ص 174.
- ⁴² المرجع نفسه: ص 176.
- ⁴³ المرجع نفسه: ص 178.
- ⁴⁴ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت- لبنان، 2001م، ص 35-36.
- ⁴⁵ المرجع السابق: عمر بوقمرة، أسس نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث، ص 180.
- ⁴⁶ المرجع السابق: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 33.
- ⁴⁷ عبد الرؤوف مخلوف: الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن (دراسة تحليلية نقدية)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، 1978، ص 492.
- ⁴⁸ المرجع نفسه: ص 493-494.
- ⁴⁹ المرجع السابق: الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، ص 495-496.
- ⁵⁰ المرجع نفسه: ص 496.

- ⁵¹ إبراهيم صدقة: النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي، عالم الكتب الحديث، ط1، 1432هـ- 2011، ص 198.
- ⁵² المرجع نفسه: ص 198.
- ⁵³ المرجع السابق: النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي، ص 325.
- ⁵⁴ المرجع نفسه: ص 328.
- ⁵⁵ وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ط1، دار الفكر، دمشق، 1403هـ- 1983 م، ص 5.
- ⁵⁶ المرجع نفسه: ص 6.
- ⁵⁷ المرجع نفسه: ص 109.
- ⁵⁸ المرجع نفسه: ص 110.
- ⁵⁹ المرجع السابق: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية، ص 113.
- ⁶⁰ المرجع نفسه: ص 115.
- ⁶¹ المرجع نفسه: ص 139.
- ⁶² المرجع السابق: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية، ص 199.
- ⁶³ حميد قبائلي: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني " دراسة في الأسس والمنطلقات"، مجلة الأثر، جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر) العدد 29، ديسمبر 2017، ص 14.
- ⁶⁴ جمال محمد صالح حسن: الجهود النقدية والبلاغية عند العرب حتى القرن السابع هجري، عالم الكتب الحديثة، ط1، 1431هـ- 2010م، ص 87.
- ⁶⁵ محمد الخضر الحسين الجزائري: مباحث في اللغة والبلاغة والنقد، دار الأمة، ط1، الجزائر، 2014، ص 241.
- ⁶⁶ المرجع السابق: مباحث في اللغة والبلاغة والنقد، ص 336.
- ⁶⁷ المرجع نفسه: ص 338.
- ⁶⁸ سحر سليمان الخليل: قضايا النقد العربي القديم والحديث، دار البداية ناشرون وموزعون، ط1، عمان - الأردن، 1431هـ- 2010م، ص 33.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم صدقة: النص الأدبي في التراث النقدي والبلاغي، عالم الكتب الحديث، ط1، 1432هـ- 2011.
2. إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، القاهرة- مصر، 2012.
3. ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، ج5، دار المعارف، القاهرة.
4. أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: محمد اليحايوي، دار الفكر العربي، ط2، د- ت.

5. جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطبي: أنباء الرواة على أنباء النحاة، ج2، تحقيق محمد أبو الفضل
6. إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1406هـ - 1986م.
7. جمال الدين أبي الحسن، علي بن يوسف القفطبي: إنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل 8.
8. إبراهيم، ج2، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت - لبنان، 1406هـ - 1906م.
9. جمال محمد صالح حسن: الجهود النقدية والبلاغية عند العرب حتى القرن السابع هجري، عالم الكتب الحديثة، ط1، 1431هـ - 2010م.
10. حميد قبائلي: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني " دراسة في الأسس والمنطلقات"، مجلة الأثر، جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر) العدد 29، ديسمبر 2017.
11. سحر سليمان الخليل: قضايا النقد العربي القديم والحديث، دار البداية ناشرون وموزعون، ط1، عمان - الأردن، 1431هـ - 2010م.
12. سناء حميد البياني: قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، دار وائل للنشر، ط1، عمان - الأردن، 2003م.
13. صالح بلعيد: نظرية النظم، دار هومة، الجزائر، 2002.
14. عبد الرؤوف مخلوف: الباقلائي وكتابه إعجاز القرآن (دراسة تحليلية نقدية)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، 1978 .
15. عبد القادر حسين: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة - مصر، 1998.
16. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان، 2001.
17. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان، 2001م.
18. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر.
19. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد الهندواي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت - لبنان، 2001.

20. عمر بوقمرة: أسس نظرية النظم في الدرس اللغوي الحديث، مجلة جسور المعرفة، العدد العاشر، جوان 2017.
21. محمد الخضر الحسين الجزائري: مباحث في اللغة والبلاغة والنقد، دار الأمة، ط1، الجزائر، 2014.
22. محمد بن علي بن محمد الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق: عبد القادر حسن، مكتبة الآداب، طبعة جديدة، 1418هـ - 1997م.
23. محمد مندور: في الميزان الجديد، دار نضرة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د-ط- ت.
24. المعجم الوجيز: تأليف ونشر مجمع اللغة العربية، ط1، 1400هـ - 1980م، مصر.
25. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425مصر، هـ - 2004م.
26. هند جميل صالح باية، مصادر الإمام عبد القاهر الجرجاني في بلاغته (رسالة ماجستير في علوم البلاغة)، إشراف علي محمد حسن العماري، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 1407هـ - 1777م.
27. وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر، ط1، دمشق، 1403هـ - 1983.
28. وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ط1، دار الفكر، دمشق، 1403هـ - 1983م.